تفضيل الرجل على المرأة في الميراث

..... ولم يكف هؤلاء المساكين الخفافيش؛ لم يكفهم الإعراض عن القرآن وتركه وراء ظهورهم، وتفضيل آراء الكفرة الفجرة عليه؛ لم يكفهم ذلك أن طعنوا فيه وزعموا أن بعض تشاريعه التي نظمها الله وشرعها؛ أنها ليست عادلة والعياذ بالله. ومن زعم هذا فقد طعن في حكمة الله وكفر بالله كفرا بواحا.
ترى الجهلة الملاحدة الذين صبغهم الإفرنج كما يشاءون يقولون: كيف يجعل دين الإسلام ميراث المرأة أقل من ميراث الرجل، وعين القرابة التي يدلي بها الرجل هي عين القرابة التي تدلي بها المرأة؟ فكيف يكون نفس ما يدلي به الرجل هو ما تدلي به المرأة، ثم يفضله عليها؟ والله جل وعلا يعلم أن هذا سيضل به قوم. وأن من زعم أن تفضيل الرجل على المرأة في الميراث ليس بحكمة ولا صواب؛ أنه ضال ولذا بين هذا من غرائب القرآن؛ حيث قال بعد قوله: { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ } أتبعه بقوله: { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا } فبين أن من لم يتبع هذا التشريع وطعن فيه؛ أنه ضال وهو كما قال الله.
ثم يقولون: كيف يجعل دين الإسلام الطلاق بيد الرجل من غير إذن المرأة مع أن عقد النكاح أولا لم يكن إلا بإذن المرأة ورضاها؟ فهي عقدة اجتمعا عليها؛ فكيف يجعل الاستقالة منها للرجل وحده دون إذن المرأة؟ ثم يقولون بالفلسفات الشيطانية؛ ربما أفنى الرجل جمالها وشبابها حتى صارت لا يرغب فيها غيره، ثم يلقيها ويطلقها فتبقى ضائعة وهذا ظلم، ويلفقون نحو هذا من الفلسفات الشيطانية التي يأتي بها قوم أعمى الله بصائرهم عن أنوار القرآن وحكم رب العالمين الباهرة. ونحن نذكر هنا إن شاء الله بعض الأشياء التي طعنوا بها في التشريع الإسلامي، ونبين أن الذي جرهم إلى ذلك هو سوء فهمهم وعدم معرفتهم وطمس بصائرهم وضلال قلوبهم. وكم من عارف قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم
أما تفضيل الله للرجل على المرأة في الميراث فقد أشار لحكمته بقوله: { الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ } وتقريب هذا للأذهان أن الميراث ما تعب فيه الرجل الوارث ولا المرأة الوارثة، ولا مسحا في تحصيله عرقا، وإنما هو مآل ملكهم الله إياه تفضلا منه ملكا جبريا من غير أن يتسببا فيه بعمل ولا بكد ولا بكدح؛ فالله ملكهما إياه. وقد أجرى الله عادته بحكمته أنه لما قسم الإنسان إلى ذكر وأنثى جعل الذكورة بقوة حالها وطبيعتها قوة وكمالا؛ فالذكورة قوة وكمال، والأنوثة ضعف خلقي فيه اللين ونقص خلقي، جبل الله هذا النوع من الإنسان عليه. وعامة العقلاء لا يكادون يختلفون في هذا إلا المكابرين بالفلسفات الشيطانية، والدليل على ذلك ما أشار له الله في سورة الزخرف في قوله: { أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } . وفي القراءة الأخرى: "أَوَمَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ". يعني يجعلون لله البنات، يجعلون له الولد ثم يجعلون له أضعف الولدين جبلة وأنقصهما خلقة وهو الأنثى؛ ولذلك منذ تولد الأنثى وهي تجعل لها الزينات. ربما ثقبت آذانها وجعلت فيها الأقراط والشنوف، ثم تجعل في جيدها القلائد من أنواع الحلي وفي معاصمها وفي خلاخلها، وتكسى الحلي والحلل منذ تولد إلى أن تموت. كل ذلك التزيين هو جبر لذلك النقص الخلقي الذي خلقها الله عليه وجبلها عليه. وما الحلي إلا زينة من نقيصة يتمم من حسن إلى الحسن قصرا وأما إذا كان الجمال موفرا كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا أما الذكر فجمال ذكورته وكمال فحولته هو جمال وكمال طبيعي؛ ولذا لا تجد الدنيا على مرور الأزمنة والقرون تخرق آذان الذكور وتجملهم بالأقراط والشنوف، ولا تجعل لهم قلائد الحلي والخلاخيل والأساور، وإنما تجعل ذلك للأنثى. والإفرنج الذين يحاولون أنهما سواء يحمرون فم الأنثى ولا يحمرون فم الذكر، وكل ذلك يشير إلى الفرق الجبلي الطبيعي بينهما الذي جبلهما الله عليه. فلما كان الله جل وعلا جعل الأنوثة في أصل طبيعتها وخلقتها ضعفا خلقيا ونقصا جبليا، وجعل الذكورة في أصل خلقتها كمالا طبيعيا وقوة جبلية اقتضت حكمة العليم الخبير أن يجعل ذلك القوي بطبعه الكامل بجبلته قيما على ذلك الضعيف بقوته الناقص بجبلته؛ ليستجلب له ما يعجز عنه من الخير ويدفع عنه ما يعجز عنه من الشر. ولذلك كان الرجل يترقب النقص في حياته دائما؛ فإنه يبذل دائما النفقات في صدقات الزوجات والإنفاق عليهن، وفي مؤن الجهاد وفي نوائب الدهر؛ فهو غارم باذل دائما. والمرأة تترقب طول حياتها الزيادة وأن يملأ كيسها، تترقب رجلا يدفع لها مالا كثيرا في صداقها، ويقوم بجميع مؤنها ولوازمها في الدنيا. فهي تترقب الزيادة دائما والرجل يترقب النقص دائما. فلما كان الحكيم الخبير أراد أن يقسم عليهما الميراث آثر مترقب النقص دائما على مترقب الزيادة دائما جبرا لبعض نقصه المترقب؛ ولذا تجد الرجل وأخته؛ تجد أخته تدفع لها الأموال الكثيرة في صداقها، ويقوم غيره بنفقاتها وكل ما يلزم لها. والرجل أخوها الآخر هو الذي يبذل ما عنده في نفقات زوجاته ومهورهن، ونوائب الدهر ومعونات الجهاد وغير ذلك. وإذا وجدنا من يقسم على اثنين؛ أحدهما يترقب النقص دائما، والثاني يترقب الزيادة دائما؛ فآثر مترقب النقص دائما على مترقب الزيادة دائما جبرا لبعض نقصه المترقب؛ لقلنا له: إن إيثارك لهذا وزيادتك لهذا عن هذا واقعة موقعها عن حكمة بالغة، ووضع أمر في موضعه، وإيقاعه في موقعه. ولهذا كان جل وعلا يفضل في الميراث الذكر على الأنثى؛ لأن الذكر باذل يبذل في مهور الأزواج وفي نفقاتهن وفي نفقات الأولاد، وفي مؤن الجهاد، وغير ذلك من وجوه البر. والمرأة دائما تترقب رجلا يبذل لها مالا كثيرا يسمى الصداق، ويقوم بشئونها من إنفاق وملبس ومأكل ومشرب وكل ما تحتاج إليه؛ فإيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة حكمة بالغة، وأمر واضح واقع موقعه كما لا يخفى إلا على مطموس البصيرة.